

كان يتكلم في تليفون الدُكان بصوت مُرتفع، وجعل يميل بنصفه الأعلى داخل الدُكان ليبتعد ما أمكن عن الضوضاء، طويل القامة نحيلها وروّي الجبهة والعينين. مُكُور الذقن وأما صلغته فلم يَبْقِي فوق مرآتها إلا جذور شعر أبيض مثل منابت شعر ذقنه، علي ذلك كان يتمتع بحيوية مرحة وتلتمع عيناه بنشاط وابتهاج. وبدا أنه ينظر إلي الداخل لا إلي الطريق ثم مال يُمنة بمحاذاة صف من اللوريات الواقفة نسق التوار حتي وجد منفذا إلي الشارع، وما كاد يجاوز مُقدمة اللوري الأخير حتي شعر بسيارة فورد تندفع نحوه بسرعة فائقة. وقال أحد الشهود فيما بعد إنه كان عليه أن يتراجع بسرعة وإنه لو فعل ذلك لنجا رغم سرعة السيارة، ندّت عن الرجل صرخة كالعواء وفي ذات الوقت انطلقت صرخات الفرع من المارة الواقفين علي التوار، حتي تكون منهم سور غليظ منيع وانتشر في المنطقة الهرج، الرجل وهو يرتفع في الفضاء امتارا ثم يهوي فوق الأرض كشيء، وبسرعة وبدون أن ينظر إلي يساره كما يجب"، وإذا لم يجد وجها مستجيبا عاد ليقول بلهجة خطابية: "لم يكن بإمكانني تفادي الصدمة". "لكنه طار في الهواء والعياذ بالله" وجاء شرطي مسرعا وفتح له وقع قدميه ثغرة في السور الآدمي، خطوات فقط وعينهم لا تتحول عن الرجل ولا تخفي حِدة تطلعها وإشفاقها وقال إنسان: "سبقي هكذا حتي يموت ونحن لا نفعل شيئا" وبوليس النجدة والإسعاف في الطريق إليه" واعترض الحادث جانب الطريق واضطرت السيارات إلي الإلتفاف حول السور البشري مشاركة الترام في ممشاة. فضايق بها حتي تحركت في بطء شديد وتجمعت في صفوف ممتدة ومتداخلة وهي تصرخ وتعوي بلا فائدة، ومن ركايبها تطلعت أعين إلي الضحية في اهتمام وأعين تجنب النظر في جذع. وجاء بوليس النجدة وراء صفارته الحلزونية فاتسعت الحلقة وغادرت القوة السيارة إلي الرجل الملقى وكان الضابط حاسما وحازما، فأصدر أمرا بتفريق المتجمعين، وإذا لم تكن ثمة ضرورة إلي السؤال فإنه لم يلق بالا إلي الجواب، فتقدم ماسح أحذية وسائق لوري وصبي كبابجي كان عائدا بصينية فارغة، وأعادوا علي مسمع الضابط ما حدث منذ ما كان الرجل المجهول يتكلم في التليفون. وجاءت سيارة الإسعاف وأحاط رجالها بالرجل، وتفحصه رئيسهم بعناية وحذر وهو يجلس القرفصاء، ثم نهض متوجها إلي الضابط فبادره هذا قائلا: "أظن يجب نقله إلي الإسعاف"، وعندما أُرقد الرجل بحجرة الفحص في مستشفى الدمرداش، "عملية!" فهز رأسه قائلا: "إنه يحتضر!" وقال الطبيب: "هذه الحوادث لا تنتهي"، وشرع في عمله علي حين بسط له الشاويش المرافق له ورقة فوق منضدة، وألقي نظرة عابرة علي أسماء الأدوية، ولما لم يجد شيئا اخر في الحافظة قال بضيق: "لا توجد بطاقة تحقيق شخصية"، فأمل أن يصادف فيها ما يستطيع أن يستدل به علي شخصية الرجل. فعاد إلي رأس الصفحة ولكن الرسالة كانت موجهة "إلي أخي العزيز أدامه الله" فاستاء من هذه المعاندة ولم يجد بُدا من قرائتها. وامتد بصره فوق الوجه الأسطر إلي الوجه الباهت المشئوب بزرقه مخيفة المغلق كسر، فانتبه إلي نفسه وابتسم ابتسامة إستهانة ليدل علي اعتياده أي شيء وقال "اليوم تحقق لي أكبر أمل في الحياة" بذلك بدأت الرسالة وعاد إلي القراءة متجنباً النظر إلي عيني الطبيب، أمينة وبهية وزينب في بيوتهن، وهذا هو النصر المبين"، وبعد تفكير طويل، قصة حادثة للكاتب نجيب محفوظ يُسمَع صوته رغم ضوضاء شارع الجيش الصاخب، ثم ختم حديثه بقوله: "إنظرنني سأحضر فوراً". كان في الستين أو نحوها، طويل القامة نحيلها وروّي الجبهة والعينين. وقد أفصح مظهره عن إهمال صريح نتيجة للسن أو الطبع أو نسيان للذات، علي ذلك كان يتمتع بحيوية مرحة وتلتمع عيناه بنشاط وابتهاج. مرق من المنفذ ليعبر الشارع إلي ضفته الأخرى، وما كاد يجاوز مُقدمة اللوري الأخير حتي شعر بسيارة فورد تندفع نحوه بسرعة فائقة. ولكنه لسبب ما لعلهُ المفاجئة أو سوء التقدير وثب إلي الأمام وهو يهتف "ياساتر يارب" ومرت الحوادث متلاحقة. وفوق إفريز محطة الترام صدر عن فرملة الفورد صوت محشرج متشنج ممزق وهي تزحف علي الأرض بعجلات متوقفة جامدة وهرع نحو الضحية في ثوان عشرات وعشرات كأسراب الحمام، وقد فقدت حذائها، وكأن الأمر لا يعنيه البتة. أندفع هو من أمام اللوري فجأة، وبسرعة وبدون أن ينظر إلي يساره كما يجب"، وإذا لم يجد وجها مستجيبا عاد ليقول بلهجة خطابية: "لم يكن بإمكانني تفادي الصدمة". لعلها إصابة بسيطة" عند فمه انظر. "كل ساعة حادثة من هذا النوع" وجاء شرطي مسرعا وفتح له وقع قدميه ثغرة في السور الآدمي، خطوات فقط وعينهم لا تتحول عن الرجل ولا تخفي حِدة تطلعها وإشفاقها وقال إنسان: "سبقي هكذا حتي يموت ونحن لا نفعل شيئا" فأجابه الشرطي بلهجة رادعة "أقل لمسة قد تقتله، وبوليس النجدة والإسعاف في الطريق إليه" فضايق بها حتي تحركت في بطء شديد وتجمعت في صفوف ممتدة ومتداخلة وهي تصرخ وتعوي بلا فائدة، ومن ركايبها تطلعت أعين إلي الضحية في اهتمام وأعين تجنب النظر في جذع. فأصدر أمرا بتفريق المتجمعين، وإذا لم تكن ثمة ضرورة إلي السؤال فإنه لم يلق بالا إلي الجواب، وتسائل مرة أخرى: "هل من شهود؟" وأعادوا علي مسمع الضابط ما حدث منذ ما كان الرجل المجهول يتكلم في التليفون. وجاءت سيارة الإسعاف وأحاط رجالها بالرجل، فقال الآخر بلهجة ذات أثر لا يختلف عادة عن الأثر الذي يحدث عن جرس سيارته: "بل يجب نقله إلي مستشفى الدمرداش" وعندما أُرقد الرجل بحجرة الفحص في مستشفى الدمرداش، فالتفت

المدير نحو مساعده وهو يقول انتهى. عدا فردة الحذاء المفقودة، ثم وهو يقترب من السرير: "أرجو أن نستدل علي شخصيته" وتأهب بدوره لتسجيل المحضر، ودس الضابط يده برفق في جيب الجاكتة الداخلي فاستخرج حافظة نقود قديمة متوسطة الحجم ومضي يفتشها جيبا جيبا، روشة للدكتور فوزي سليمان"، ويستحسن تجنب المنبهات كالشاي والقهوة والشيكلاته" وابتسم الضابط ابتسامة باطنية، إذ أن تعليمات شبيهة صدرت إليه من طبيبه في نفس الشأن، منديل، ساعة يد، فعاد إلي رأس الصفحة ولكن الرسالة كانت موجهة "إلي أخي العزيز أدامه الله" فاستاء من هذه المعاندة ولم يجد بُدا من قرائتها. أضطر إلي التوقف رافعا عينيه إلي تاريخ الرسالة وكان تاريخ اليوم نفسه ٢٠ فبراير، ذلك الذي تحقق له أكبر أمل في الحياة وتسائل الطبيب عثرت علي شيء؟ انزاحت جميعا والحمد لله، وكلما ذكرت الماضي بمتاعبه وكدحه وشقاءه أحمد الله المنان، وهذا هو النصر المبين"، الذي يثير الدهشة بصمته و انعزاله وارتداده العميق إلي المجهول، فتهيأت أن تتحسن صحتي طالما بقيت في المدينة، هي الفرق بين المرتب والمعاش، ولذلك قررت أن أطلب إحالتي إلي المعاش وقريبا أعود إلي البلد إن شاء الله،